على ضفاف القناة :

بلد الجمـــال

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

لم تكد وزارة المعارف — ساعها الله — تدعني أنعم بالقاهرة بعد أن نقلت من عنيبة عاصمة بلاد النوبة المصرية ، حتى ألقت بي على ضفاف القناة .. قناة السويس ، وبحيرة التمساح في مدينة الإسماعيلية ، حيث تقوم للانجليز صولات وجولات . وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى ، أو أرادت لي وزارة المعارف ، أن ألمس السلطان الإنجليزي المقيت في منطقة قناة السويس ، كما لمسته ، ورأيته في السودان وما يتصل به ، وتقلص السلطان المصري إلى حد يعتبر فيه الإنجليز أن البواخر النيلية التي تنقل الركاب والبضائع من وادي حلفا إلى الشلال وبالعكس — أرض سودانية ، أو بمعنى أدق (إنجليزية) تجري في مياه مصرية . وعلى هذا فأية حادثة تقع فيها تختص بنظرها حكومة السودان لا الحكومة المصرية ، حتى ولو كان ذلك في الشلال نفسه بالقرب من أسوان . !!

ومهما يكن من شيء في الإسماعيلية الجميلة — التي لم أكن أعرفها من قبل إلا معرفة عابرة ، حين كنت أمر بها بالقطار أو السيارة في طريقي إلى بور سعيد التي أمضي بها أكثر مدة الصيف غاليا — في هذه المدينة الجميلة رأيت طرازا جديدا لما يجب أن تكون عليه المدن المصرية في العواصم والأقاليم .. وكنت أسمع من قبل بجمالها ونظافة شوارعها المستقيمة التي تمر بقسميها العربي والأفرنجي على السواء

ولكني لم أكن لأتصورها على حقيقتها التي رأيتها عليها. ويمكن أن نقول صادقين : إن الإسماعيلية هي البلد الوحيد في القطر المصري الذي لا تستطيع أن تصفه بغير الجمال والنظام والحسن والنظافة مهما تجنيت عليه ، أو حاولت إنقاص قدره ، وتهوين شأنه ، أو الميل منه ، لغرض من الأغراض

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الإسماعيلية نظيفة بطبيعتها حيث تقع على بحيرة التمساح التي تمر بها قناة السويس — فتؤثرف جوها ، وتجعله نقيا هادئا ، عليلا بليلا .. وفي منظرها فتزيده روعة وجلالاً ، وتضفي عليه مهابة وبهاء ، وأرضها صحراوية رملية ، قد رصف أكثر شوارعها - إلا أن الصحراء تحيط بها من ثلاث جهات فتهب عليها الرياح الساخنة أحيانا ، وتحمل الرمال والغبار ، فتكون سببا من أسباب الضيق والبلاء .. إلا أن هذا لا يحدث في غير أيام الخماسين ، حيث تعم الشكوى في مصر من هذه الأيام

والإسماعيلية مدينة محدودة لها أول ، ولها آخر . ولعلك تعجب حين تعلم أن الناحية البحرية منها لها سور حديدي يؤذن بانتهاء المدينة عند ذلك المكان .. وهي مدينة أفرنجية بأوسع ما تحمل هذه الكلمة من معان ، حتى أن السائر في بعض شوارعها يعتقد أنه يسير في بلد أوروبي صميم ، لا في شارع من شوارع مدينة مصرية ومرجع ذلك أن شركة القناة هي التي وضعت تصميم هذه المدينة ، وجعلها في الأصل قسمين : أولها حي الفرنجة ، وثانيها حي العرب ، وهما يقعان شرق الخط الحديدي من القاهرة إلى بورسعيد ، وغرب ترعة الإسماعيلية التي استفادت منها الشركة في تجميل المدينة إلى أبعد حد . ذلك أنها بنت على طول شاطئ هذه الترعة الغربي القصور الفخمة لموظفيها ، وكبار رجالها ، وعلى هذا الشاطئ يقع شارع (محمد علي) وهو أطول شوارع المدينة على الإطلاق ، وأكثرها اتساعا وأهمية . . وغرست الأشجار على الشاطئين في نظام جميل ، وبخاصة شاطئ الترعة الغربي حيث تمتد الحدائق إلى شاطئ بحيرة التمساح في صورة غابات كثيفة رهيبة من أشجار (الكزورين) و (اللاتانية) و (الكافور) وغير ذلك من الأشجار الضخمة التي جعلت من هذه الغابة ستارا كثيفا يحجب الشمس في أيام الصيف القائظ أن تصل إلى المتنزهين والمرتادين ، في أية ساعة من ساعات النهار

وما أجمل بحيرة التمساح ! تلك البحيرة الهادئة الوادعة التي تنساب فوقها المراكب الشراعية الصغيرة ، والقوارب البخارية هنا وهناك ، وكأنها الحمائم البيض فوق صفحة لا يهيجها موج ،

ولا يعكر صفوها ريح عاصفة — وما أجل بحيرة التمساح حينما تمر بها البواخر الكبيرة الذاهبة إلى البحر الأحمر ، والآتية منه ، وكأنها المدن الكبيرة تتحرك فى بطء وتثاقل ، كأنما تحمل أوزار العالم وآلام الوجود

وحدائق الإسماعيلية ذات شهرة عالية ، ذلك لأن اليد الفرنسية التى تمتاز بالذوق والجمال ، قد افتنت فى تنسيقها ، وأبدعت فى تنظيمها ، فصارت طرفة فنية ، تأخذ بمجامع القلوب ولكن لا يتمتع بها غير الأجانب الذين لا تخلو منهم الحدائق فى أية ساعة من ساعات النهار . . يخرج إليها الرجال والنساء والأطفال ، فى مظهر طبيعى لا أثر للكلفة والتصنع فيه . . أما المصريات بالذات فلا تكاد ترى لهن أثراً فى هذه الجنات الباسقات ، الوارفة الظلال . وإذا قدر لك ورأيت مصرية دفعتها روح المدنية إلى أن تأخذ نصيبها من الرياضة الجميلة بين الحدائق الغنى ، فإنك ناقم عليها أشد النقمة . . ذلك لأنها لم تفهم بعد معنى الرياضة ، فهى تتخذ من عوامل الزينة ما يجعلك توقن أنها ذاهبة إلى معرض من معارض الأزياء والجمال . . يا لله ! ما هذه الثياب الغالية المطرزة المفوفة التى تعوق سيرك أيتها المصرية الذاهبة إلى مواطن الطلاقة والمراح . . إلى الطبيعة الطلقة ، الخالية من أسباب التصنع والتكلف المقيت . . بينما ترين الأجنبيات كالزهرات المتفتحات ، وسط هذه الزهور الطبيعية ، فيخيل إليك أنهن يكملن الوضع الطبيعى لهذه الزهور ، وينسجمن معها فى بساطة لا تدانيها بساطة ، ومع هذا فلا يمكن أن تحكم على هؤلاء الأجنبيات بغير الذوق والجمال الأخاذ

وقد ترى طائفة من الشباب المصرى ، فيتملكك الحزن لمنظرها وهى تسير فى الطريق اللامع وقد حمل كل فرد عودا من القصب . . قصب السكر أطول منه ، يلوكه بين ماضغيه ، ويكاد يطحنه بأضراسه طحنا ، ثم لا يكف أثناء المضغ عن الكلام البذىء ، يلاحق به الرائحات دون اهتمام بما ينال فى بعض الأحايين من تأنيب قاس ، يعتقد هو أن هذا فاتحة الباب . . !

والحى الأفرنجى فى الإسماعيلية نظيف جدا ، شأنه فى ذلك شأن الحى الأفرنجى فى بورسعيد والسويس وأعنى بهما بورفؤاد وبورتوفيق . . وفى هذا الحى تجد المآثر الضخمة الفخمة ، والفيللات الصغيرة المتناثرة ، والشوارع اللامعة أرضها ، والحوانيت الغاصة بأجل السلع ، وأغلى الأسعار . وينشرح صدرك إذا طوفت بهذا الحى سواء فى الليل والنهار . . بيد أنك لا تكاد ترى وجها مصريا يقطن فى هذا الحى ، وإنما هى وجوه غريبة من كل لون وجنس . . وجوه تنكرها ولا تعرفها . . . وجوه أجنبية كالحة أكثرها من الإنجليز الذين رمت بهم أمواج البحار ، ولفظتهم بلادهم ، وجاءت بهم المطامع الأشعبية الآثمة إلى هذه الصحراء الفاحلة فى منطقة قناة السويس ، فأحالتها أفكارهم إلى جنة وارفة الظلال . لا بأموالهم وجهودهم ، وإنما بأموالنا نحن المصريين — أو بعبارة أدق بذلك الحبر على الورق ؛ يصنعونه فى مصالحهم بلا رصيد وغطاء ، ويقذفون به إلينا جنيهات مصرية قشيبة لا نعرف لها أولا من آخر . وبجهود عمالنا نحن المصريين الذين يكدون ويكدحون لقاء ما يأخذونه من أجر زهيد لا يكاد يقع موقعا من كفايتهم !

والحى العربى ليس فى نظافة سابقه ، وإن كانت شوارعه مرصوفة إلا أن فيه الفوضى المصرية سواء فى المنازل أو الدكاكين . وعلى البلدية تبعة ثقيلة جدا ، ولنا معها حساب عسير ؛ ذلك أنها لم تعم المجارى بهذا الحى المسكين ، فلم يخل شارع من شوارعه الكبيرة أو الصغيرة على السواء من أقذار يترا كم عليها الذباب ، وعياه قذرة متقنة تلقى من النوافذ إذا جن الليل كأفواه القرب ، أو تخرج بها النسوة والفتيات من الأبواب ، أو تفيض بها فى أكثر الأحايين دورات المياه ، حاملة معها الوباء العاجل والخطر الماحق والدمار الأليم ! !

وغربى السكة الحديدية ثلاثة أحياء أخرى ، دعت إليها سنة التطور وكثرة الزحام فى الإسماعيلية ! أولها (عرايشية لندن) ولا تعجب لهذه التسمية فهو حى إنجليزى لحما ودما ، بنيت عماراته بأيد مصرية وضع فيها الذهب أو بعبارة أدق (الحبر على الورق) أيدى الإنجليز ، وفى كل عمارة من عماراته تقطن عشرات من الأسر الإنجليزية الصميمة التى نزحت إلى هذا القطر المسكين ، لتشاطر أهله خلات أرضه وثماره ، بل تستأثر دونهم بأطيب هذه الثمرات وخير هذه الخلات . .

وثانيهما (عرايشية مصر) وهو حى متوسط يسكنه كثير من المصريين ذوى الدخل العادى ، ويشبه من وجوه كثيرة حى

فى شعر عائشة التيمورية

١٨٤٠ — ١٩٠٢

للأستاذ محمد سيد كيلانى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

هذه الأبيات التى سردناها من قصيدتها فى رثاء ابنتها هى أروع ما فى القصيـــدة . وهى تصـور شعـورا داخليا لحالة فتاة قد أيست من شفائها وأيقنت بهلاكها ، فهى تودع أمها الوداع الأخير وترجو أن يترفق بهـا اللحاد حين يوسدها الثرى ويهيل عليها التراب . وتسأل أمها أن تصون جهاز عرسها تذكارا لها . واسمع إلى أمها حين تجيب ابنتها :

فأجبتها والدمع يحبس منطقى ... والدهر من بعد الجوار يجور

بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفو شأنه التكدير

لا توصى ثكلى أذاب وتينها ... حزن عليك وحسرة وزفير

هكذا ردت عائشة على بنتها . وهو رد ضعيف ، وكان ينبغى أن يكون أقوى من ذلك بكثير والمانى فى هذه الأبيات تافهة . ثم تأخذ قيمة القصيدة بعـد ذلك فى الانحدار ، وتختفى الشعور الداخلى بيتا بعد بيت حتى ينعدم تماما وتنقلب القصيدة إلى نوع من النظم الذى لا رائحة فيه للشعر . وهذا دليل على ضعف الشاعرة وضيق أفقها . ولو أنها وهبت حظا من الشاعرية لاستوحت من المقام جملة قصائد مبكية لا قصيدة واحدة ، وبخاصة أن بنتها ماتت وهى فى فجر شبابها . وقد قيل إنهـا انقطعت عن قول الشعر بعد وفاة بنتها هذه لمدة سبعة أعوام

ولعائشة قصيدة رثت بها والدها ومطلعها :

هز العزاء على بنى النبراء ... لـما توارى النجم بالظلماء

وقد ذكرت فى هـذه القصيدة مجىء الطبيب إلى والدها ، ثم انطلقت أباها بعدة أبيات مؤثرة . ثم شرعت بعد ذلك تندب وتنوح فقالت :

يا حسرة ابنته إذا نظرت لها ... يمناه عين من البأساء

قالت وحق سنا أبوتك التى ... كانت ضياء الأمن للأبناء

مذ ما فقدتك والحشا متسعر ... والجسم منتحل من الضراء

يا كنز آمالى وذخر مطالبى ... وسعود إقبالى وعين سنائى

يا طب آلامى ومرهم قرحتى ... وغذاء روحى بل وسهر فنائى

أبتاه قد جرعتنى كأس النوى ... يامر جرعته على أحشائى

أبتاه قد حش الفراق حشاشتى ... هل يرتضى القلب الشفوق جفائى

فإذا قرأت هذه الأبيات شعرت بأن امرأة تقف أمامك وقد تدفقت منها الدموع . وهى تتحسر وتتوجع وتئن وتتألم لـما أصابها من خطب وحل بها من كرب

ورثت شقيقتها بقصيدة مطلعها :

يا من أتى للقبر يقرأ طرسه ... مهلا فليس كتابه بمـداد

وقد ذكرت كذلك فى هذه القصيدة عيادة الطبيب لأختها ونظمت على لسان تلك الأخت أبياتا مؤثرة إلى حد بعيد قالت :

جاء الطبيب يجس نبض ذراعها ... فرأى التأثر ليس كالمعتاد

فتنفس الصعداء مرات وقد ... أعيى ، وقال اليوم ضل رشادى

فتبسمت جزعا ، وقالت: سيدى ... أأموت قبـل الترب والأنداد

وأسير من دون الأنام وكم أرى ... للدهر قبـل الموت من رواد

ثم انتقلت بعد هذا إلى تصوير شعورها الفياض بالحزن على ما أصابها من موت أختها

والملاحظ فى رثائها لبنتها ووالدها وشقيقتها أنه تضمن صورة واحدة ، تلك هى مجىء الطبيب ويأسه من شفاء المريض وعجزه عن علاجه . ثم تأتى بعد ذلك محاورة بين المريض والطبيب أو بين المريض والشاعرة كما حدث لها مع بنتها . ونرى فى هـذه

العرب فى الناحية الشرقية والثالث (هرايشية المبيد) وهو حى فقير ، تسكنه الطبقات الفقيرة العاملة الكادحة فى هذه المدينة الزاخرة بالناس من جميع الألوان والأشكال ، والتى تفيض بالذهب فى كل ناحية من نواحيها ، ومع هذا لايكاد يسمع الفقير رنين هذا الذهب ليجد منه السلوى والعزاء . !

هل كتب على المصريين أن يعيشوا دائما على هامش الحياة دون أن يفهموا شيئا من حقيقتها وإن طال بهم العمر وامتد بهم الأجل !! إن الفقر ليس علة العلل كما يدعى بعض الناس ، وإنما هو الجهل الفاضح بأسرار الكون ، وحقيقة الوجود ، وإلا فماذا تكلفنا النزهة اليومية ساعة كل يوم ومنا أبناؤنا نتمتع فيها بالنسيم والهواء ، والخضرة والماء ، والجمال والصفاء ؟!.

عبد الحفيظ ابو السعود

المدرس بمدرسة البنات الثانوية الأميرية بالإسماعيلية